

الحوار الإيجابي ودوره في الحد من العنف

الحوار هو تفاعل لفظي (وأحيانا غير لفظي) بين اثنين أو أكثر من البشر بهدف التواصل الإنساني وتبادل الأفكار والخبرات وتكاملهما . وهو نشاط حياتي يومي نمارسه في المنزل والشارع والعمل والمدرسة والجامعة ووسائل الإعلام. ويقدر ما يكون الحوار إيجابياً يكون مثمراً في حياة الفرد وحياة الجماعة. ويقدر ما يكون سلبياً يكون هداماً لكيان الفرد وكيان الجماعة .

" وإذا كان الإسلام يطلب الحق والعدل ويدعو إليه فإن الوسيلة لإقرارهما تبتدئ بالحوار الذي أقامه الإسلام على ثلاث مستويات:

المستوى الأول : الحوار مع النفس ومحاسبتها وحملها على الجادة وطلب الحق ويكون هذا في شكل حوار داخلي مستمر بين النفس الأمانة بالسوء والنفس اللوامة حتى يصل الإنسان إلى الاطمئنان

المستوى الثاني : الحوار بين أفراد المجتمع الإسلامي وفق اجتهاداته المختلفة عملاً بمبدأ "التعاون في الاتفاق والاعتذار في الاختلاف " حفاظاً على وحدة الصف الإسلامي ...

المستوى الثالث : الحوار بين المسلمين وغير المسلمين الذين يشتركون معاً في إعمار الكون ، وهو حوار يجري وفق مبدأ المدافعة الذي يمنع الفساد وينمي عوامل الخير.

ويقال عن غايات الحوار "للحوار غايتان إحداها قريبة والأخرى بعيدة. أما غاية الحوار القريبة والتي تطلب لذاتها دون اعتبار آخر فهي محاولة فهم الآخرين . وأما الغاية البعيدة فهي إقناع الآخرين بوجهة نظر معينة "

وعن آداب الحوار يقول:

حسن الخطاب وعدم الاستفزاز وازدراء الغير، فالحوار غير الجدال . واحترام آراء الآخرين شرط نجاحه ، ولنا في حوار الأنبياء مع أقوامهم أسوة حسنة، فموسى وهارون أمرا أن يقولوا لفرعون قولا لنا لعله يذكر أو يخشى . وفي سورة سبأ يسوق الله لنا أسلوباً لمخاطبة غير المسلمين حيث يقول في معرض الحوار . "وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" .

أن يصدر عن قاعدة قدرها علماء المسلمين وهي قاعدة "قولي صواب يحتمل الخطأ وقول غيري خطأ يحتمل الصواب " فالحق ضالة المؤمن وضالة الإنسان العاقل واتباع الغير واتباع الشهوات مما عابه القرآن على الكافرين وعده سبباً لهلاك الأمم .

والذي يحسم الخلاف بين المسلمين هو المرجعية المعرفية للمسلمين وهى القرآن والسنة " وإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول " .

والآن نستعرض بعض ألوان الحوار السائدة في حياتنا والمؤثرات في سلوكنا وفى مسيرتنا الحضارية أفرادا وجماعات ولنبدأ بألوان الحوار السلبي :

الحوار العدمي التعجيزي : وفيه لا يرى أحد طرفي الحوار أو كليهما إلا السلبيات والأخطاء والعقبات وهكذا ينتهي الحوار إلى أنه لا فائدة ويترك هذا النوع من الحوار قدراً كبيراً من الإحباط لدى أحد الطرفين أو كليهما حيث يسد الطريق أمام كل محاولة للنهوض.

حوار المناورة (الكر والفر) : ينشغل الطرفان (أو أحدهما) بالتفوق اللفظي في المناقشة بصرف النظر عن الثمرة الحقيقية والنهائية لتلك المناقشة وهو نوع من إثبات الذات بشكل سطحي .

الحوار المزدوج: وهنا يعطى ظاهر الكلام معنى غير ما يعطيه باطنه لكثرة ما يحتويه من التورية والألفاظ المبهمة وهو يهدف إلى إرباك الطرف الآخر ودلالاته أنه نوع من العدوان الخبيث.

الحوار السلطوي (اسمع واستجب) : نجد هذا النوع من الحوار سائداً على كثير من المستويات ، فهناك الأب المتسلط والأم المتسلطة والمدرس المتسلط والمسئول المتسلط .. الخ وهو نوع شديد من العدوان حيث يلغى أحد الأطراف كيان الطرف الآخر ويعتبره أدنى من أن يحاور ، بل عليه فقط السماع للأوامر الفوقية والاستجابة دون مناقشة أو تضجر وهذا النوع من الحوار فضلاً عن أنه إلغاء لكيان (وحرية) طرف لحساب الطرف آخر فهو يلغى ويحبط القدرات الإبداعية للطرف المقهور فيؤثر سلباً على الطرفين وعلى الأمة بأكملها .

الحوار السطحي (لا تقترب من الأعماق فتغرق) : حين يصبح التحوار حول الأمور الجوهرية محظوراً أو محاطاً بالمخاطر يلجأ أحد الطرفين أو كليهما إلى تسطيح الحوار طلباً للسلامة أو كنوع من الهروب من الرؤية الأعمق بما تحمله من دواعي القلق النفسي أو الاجتماعي .

حوار الطريق المسدود (لا داعي للحوار فلن نتفق) : يعلن الطرفان (أو أحدهما) منذ البداية تمسكهما (أو تمسكه) بثوابت متضادة تغلق الطريق منذ البداية أمام الحوار وهو نوع من التعصب الفكري وانحسار مجال الرؤية .

الحوار الإلغائي أو التسفيفي (كل ما عداي خطأ) يصر أحد طرفي الحوار على ألا يرى شيئاً غير رأيه ، وهو لا يكتفي بهذا بل يتنكر لأي رؤية

أخرى ويسفها وبلغها وهذا النوع يجمع كل سينات الحوار السلطوي وحوار الطريق المسدود .

حوار البرج العاجي : ويقع فيه بعض المثقفين حين تدور مناقشتهم حول قضايا فلسفية أو شبه فلسفية مقطوعة الصلة بواقع الحياة اليومي وواقع مجتمعاتهم وغالبا ما يكون ذلك الحوار نوع من الحذقة وإبراز التميز على العامة دون محاولة إيجابية لإصلاح الواقع.

الحوار المرافق (معك على طول الخط) : وفيه يلغي أحد الأطراف حقه في التناوب لحساب الطرف الآخر إما استخفافا (خذه على قدر عقله) أو خوفا أو تبعية حقيقية طلبا لإلقاء المسؤولية كاملة على الآخر .

الحوار المعاكس (عكسك دائما) : حين يتجه أحد طرفي الحوار يمينا ويحاول الطرف الآخر الاتجاه يسارا والعكس بالعكس وهو رغبة في إثبات الذات بالتميز والاختلاف ولو كان ذلك على حساب جوهر الحقيقة ...

حوار العدوان السلبي (صمت العناد والتجاهل) : يلجأ أحد الأطراف إلى الصمت السلبي عنادا وتجاهلا ورغبة في مكايده الطرف الآخر بشكل سلبي دون التعرض لخطر المواجهة .

كل هذه الألوان من الحوارات السلبية الهدامة تعوق الحركة الصحيحة الإيجابية التصاعدية للفرد والمجتمع والأمة، وللأسف فكثير منها سائد في مجتمعاتنا العربية الإسلامية لأسباب لا مجال هنا لطرحتها.

إذن فما هي يا ترى مواصفات الحوار الإيجابي الذي نسعى لترسيخه بيننا ؟

إن الإجابة بسيطة ولكن تنفيذها يحتاج إلى وقت وصبر ولكن لامناص من المحاولة والصبر والمثابرة ، فعلى أساس الحوار يبني السلوك وتتشكل العلاقات وينهض الفرد والمجتمع والأمة .

والحوار الإيجابي الصحي هو الحوار الموضوعي الذي يرى الحسنة والسلبيات في ذات الوقت ، ويرى العقبات ويرى أيضا إمكانيات التغلب عليها ، وهو حوار متفائل (في غير مبالغة طفولية ساذجة) وهو حوار صادق عميق وواضح الكلمات ومدلولاتها وهو الحوار المتكافئ الذي يعطى لكلا الطرفين فريضة التعبير والإبداع الحقيقي ويحترم الرأي الآخر ويعرف حتمية الخلاف في الرأي بين البشر وأداب الخلاف وتقبله . وهو حوار واقعي يتصل إيجابيا بالحياة اليومية الواقعية واتصاله هذا ليس اتصال قبول ورضوخ للأمر الواقع بل اتصال تفهم وتغيير وإصلاح وهو حوار موافقة حين تكون الموافقة هي الصواب ومخالفة حين تكون المخالفة هي الصواب فالهدف النهائي له هو إثبات الحقيقة حيث هي لا حيث نراها بأهوائنا وهو فوق كل هذا حوار تسوده المحبة والمسئولية والرعاية وإنكار الذات .

ولنأخذ مثلاً من الحوار الإيجابي من التاريخ الإسلامي وقد حدث هذا الحوار في غزوة بدر حين تجمع المسلمون للقاء الكفار وكانت آبار المياه أمامهم وهنا نهض الحباب بن المنذر رضى الله عنه وسأل رسول الله ﷺ : أهو منزل أنزلك الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فأجاب رسول الله ﷺ بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يا رسول الله ما هذا بمنزل وأشار على رسول الله ﷺ بالوقوف بحيث تكون آبار المياه خلف المسلمين فلا يستطيع المشركون الوصول إليها، وفعلاً أخذ الرسول ﷺ بهذا الرأي الصائب وكان ذلك أحد عوامل النصر في تلك المعركة .

وإذا حاولنا تحليل هذا الموقف نجد أن الحباب بن المنذر كان مسلماً إيجابياً على الرغم من أنه أحد عامة المسلمين وكان أمامه من الأعداء لكي يسكت أو يعطل تفكيره فهو جندي تحت لواء رسول الله ﷺ الذي يتلقى الوحي من السماء وهناك كبار الصحابة أصحاب الرأي والمشورة ولكن كل هذه الأسباب لم تمنعه من إعمال فكرة ولم تمنعه من الجهر برأيه الصائب ولكنه مع ذلك التزم الأدب الرفيع في الجهر بهذا الرأي فتساءل أولاً إن كان هذا الموقف وحي من عند الله أم أنه اجتهاد بشري فلما عرف أنه اجتهاد بشري وجد ذلك مجالاً لطرح رؤيته الصائبة ولم يجد الرسول ﷺ غضاضة في الأخذ برأيه واحد من عامة المسلمين وهذا الموقف يعطينا انطباعاتاً هامة عن الجو العام السائد في الجماعة المسلمة آنذاك، ذلك الجو المليء بالثقة والمحبة والإيجابية وإبداء النصيحة وتقبل النصيحة .

وإذا كانت النظم الديمقراطية الحديثة تسمح للمواطن أن يقول رأيه إذا أراد ذلك، فإن الإسلام يرتقى فوق ذلك حيث أنه يوجب على الإنسان أن يقول رأيه حتى ولو كان جندياً من عامة الناس تحت لواء رسول الله ﷺ وهذا المستوى من حرية الرأي لا نجده الآن في أكثر الدول مناداة بالحرية فلا يجزئ جندي أن يشير على القائد الأعلى للقوات المسلحة في أية دولة عصرية بتغيير الخطة العسكرية حيث لا يزال الحوار الفوقي السلطوي هو السائد في المجالات العسكرية على وجه الخصوص حتى في أكثر الدول تقدماً .

وهذه الصورة نهديها لبعض رموز وقيادات الصحوة الذين يطالبون أتباعهم بالطاعة العمياء والاستجابة السلبية لكل أوامرهم اعتقاداً بأن هذا يحقق مفهوم الجندية في هؤلاء الأتباع وكم من مأس حدثت بسبب إلغاء الأتباع لعقولهم والاكتفاء بالطاعة العمياء للزعيم أو الأمير .

وليس معنى هذا أن يتحول المجتمع المسلم إلى أفراد متناحرين بآرائهم دون اتفاق وإنما يجب عند مواجهة أي قضية عامة أن يدلى كل صاحب رأى برأيه بأمانة ومسئولية ثم تجمع هذه الآراء لدى أهل الحل والعقد فيفندونها ويناقشونها ثم يتخذ القرار الصحيح بناء على تلك الرؤى المتعددة وحين يتخذ القرار ويبدأ التنفيذ فعلى أفراد المجتمع المسلم أن يتعاونوا جميعاً في تنفيذ ما اتفق عليه حتى ولو كانت آراؤهم الفردية تختلف معه ولا يصح لفرد أن يشق الصف بعد أن يتفق أهل الحل والعقد على رأى معين وهذه المبادئ غاية في الأهمية للمحافظة على سلامة الصف الإسلامي وتماسكه .

وصدق رسول الله ﷺ فقد قال معلم البشرية:

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " .

(رواه البخارى)